مَعَايِيرُ القُوَّةِ في الصوت في كتاب الخَصَائِصِ لابن جِنّي (ت 392هـ)

أ.د. صباح عطيوي عبود الزبيدي الباحث. مُحمَّد عَبْد الحُسَيْن عَبَّاس مُحَمّد الشَّمَّرِيّ
جامعة بابل/ كليّة التربية للعلوم الإنسانية

مدخل:

هذا البحث مستلٌّ من رسالة ماجستير في اللغة العربية ـ فرع اللغة، وهي بعنوان "معايير القوة في الخصائص لابن جني "ت392هـ"، وقد تناولت فيه الأسس التي اعتمد عليها ابن جني في الحكم على قوة الصوت، ولا يتبادر إلى الذهن أن الأسس كانت واضحة عند ابن جني؛ فعلم الصوت لم يصبح علما مستقلا بعد،، إذ كان يتداخل مع النحو والصرف، فضلا عن وجود بعض التفسيرات الفلسفية لقوة الصوت كما هو شأن غيره من علوم اللغة، فهو علم حديث.

قوّة الصوت "المصطلح والمفهوم":.

لم يكن هناك مصطلح محدد وثابت لمفهوم القوّة الصوتية عند ابن جني في كتابه الخصائص، فقد استعمل مصطلحات متعددة إلى جانب مصطلح " القوّة " مرادفة له، ومن هذه المصطلحات مصطلح "الثّقل"؛ الذي أراد به كلفة النطق بالحرف؛ فكلَّما كان الصوتُ ثقيلًا كان أقوى. ونلاحظ أن هذا المصطلح يختلف مدلوله عند إطلاقه على أقسام الكلمة، " الاسم، الفعل، الحرف"، بل هو على النقيض، فأقسام الكلم كلما كان واحدٌ منها ثقيلًا كان ذلك دليلًا على ضعفه، والعكس من ذلك صحيح.، وهذا يرجع إلى الجهة المعتمد علها في تفسير معنى الثّقل، وكلٌّ من مصطلحي "القوّة والثّقل" قد استُعملا في تفسير قوّة الصوت من الناحية الصوتية والصرفية فهما يشتركان في الاستعمال، سواء أُفسِّرتْ القوّة على أساس صرفي، أم صوتي. ولم يكنِ ابن جني أوّلَ من استعمل هذين المصطلحين، بل نجدهما في كتب من سبقه، ومن لحقه[1]، وهناك مصطلحات أُخر استعملها ابن جني في الخصائص وهي خاصة بتفسير القوّة على أساس صوتي فقط، أي: لا يمكن أن يُنظر معها إلى الجانب الصرفي، ومن تلك المصطلحات، الـ"جِرْس"[2]، ومنها أَيضاً: "صلابة، والقطع، والاستعلاء، وغلظ، وأعلى، وسامِيَة مُتَصعِّدة[3]. وقسمٌ من هذه المصطلحات قد ذكرها الخليل(ت175هـ) وذكر غيرها؛ فمن ذلك: "أمْتن"[4]، ومنها أَيضًا ما ذكره من المصطلحات[5]: "أطلق، وأضخم، وصلابة "، ومنها أيضًا "جِرس"[6]؛ وبذلك لم يكن ابن جني هو أول من تطرق إلى قوة الصوت، هذا من ناحية المصطلح.

أمَّا من ناحية المفهوم فهو كالمصطلح لم يكن محدّدا وثابتا أَيضا، وإنما توجد إشارات إلى ذلك، كما أنه لم يوجد منهج واضح، والسبب في ذلك _ حسب رأي الباحث _ أنَّ لغويي العرب لم يكن همهم المنهج بقدر ما كان همهم جمع أشتات متفرقة من القضايا اللغوية وتفسيرها باتجاهات متعددة ؛ ولذلك يقول الدكتور غانم قدوري الحمد: ((لا نجد في كلام متقدمي علماء العربية شيئا واضحا ومفصلا عن موضوع قوّة الصوت وضعفه، ويبدو أن علماء التجويد هم أول من بحث هذا الموضوع على نحو مفصل))[7]، وإذا كان المفهوم غير واضح عند اللغويين فيمكن تحديد الأسس العامة التي ساروا عليها في تفسير القوّة، وهي:

1. التفسير على أساس فلسفي محض، وإنما قلتُ فلسفيًّا ؛ لأنه بعيد عن الواقع اللغوي، ويعتمد على الفكر المجرد وحسب.
2. التفسير على أساس صرفي.
3. التفسير على أساس صوتي، وهذا ما سيوضحه هذا البحث.

(1) يُنظر: كتاب العين: 91/8 (دد)، وكتاب سيبويه:167/4، 349، 335– 336، ومعاني القرآن للفراء: 2/ 13، وأسرار العربية: 37، 49، 53، 56، 61، 165، ونتائج الفكر: 190، 312، وشرح المفصل لابن يعيش: 1/ 102، 303، وشرح شافية ابن الحاجب: 1/ 119، 193، 22/2، 3/ 76، 103، وهمع الهوامع: 64/1، 221/3.
(2) يُنظر: الخصائص:1/ 55، 2/ 323.
(3) يُنظر: الخصائص: 2/ 158– 162، وهذا ما نجده فيما عقده من باب في الخصائص تحت عنوان " باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني .
(4)يُنظر: العين:146/4(بخ).
(5) يُنظر: السابق:53/1_54(مقدمة الكتاب).
(6) يُنظر: السابق:53/1 (مقدمة الكتاب)، 146/4 (بخ)، 51/6 (جرس).
(7) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد: 280.

هذا بالنسبة للّغويين من غير علماء التجويد. أما علماء التجويد فقد كان المصطلح ثابتًا، وهو "القوّة"، والمفهوم واضحًا أيضًا؛ لأنه نُظر إليه من ناحية الصفة التي يمتلكها الصوت فقط، فهناك صفات قوّية، وهناك صفات ضعيفة، وقد يمتلك الصوت أكثر من صفة قوّية واحدة، وكذلك الضعيف قد يمتلك أكثر من صفة ضعيفة واحدة، وتكون قوّته وضعفه على قدر ما يمتلكه منها؛ فالصوت الذي يمتلك أكثر عدد من الصفات القوّية فهو أقوى الأصوات، والعكس من ذلك صحيح، وما اجتمعت فيه كلتاهما فبحسب ما يضمه من كلتيهما[1]، وصفات القوّة هي: ((الجهر والشدة والاستعلاء، والإطباق، والإصمات والضعيفة الخمس المقابلة وهي الهمس، والرخاوة، والاستفالة، والانفتاح، والذلق وأما السبع المفردة فكلها قوية إلا اللين))[2].

أمَّا عند المحدثين فالمصطلح محدد، وهو الـ" القوّة"، وأما المفهوم ـ عندهم ـ فينظر فيه إلى قوّة الإسماع تارة، وأخرى إلى الجهد العضلي المبذول في نطقه، ولكنّ جانب الإسماع هو الغالب.

والذي يظهر أنَّ ((اهتمام المحدثين الكبير بالوضوح السمعي للأصوات يرجع إلى أثره في تحديد الأصوات المكونة لقمم المقاطع، المتميزة بقوّة إسماعها، والأصوات المكونة لقواعد المقطع وحدوده مما تتصف بقوّة إسماع واطئة))[3].

إذن هناك ثلاثة اتجاهات في تفسير قوة الصوت، هي:.

الاتجاه الأول: علماء العربية القدماء غير علماء التجويد، ولم يكن المصطلح والمفهوم واضحا عند هؤلاء العلماء، وقد بينا سبب ذلك.

الاتجاه الثاني: علماء التجويد، وقد ثبت المصطلح لديهم، ووضح المفهوم؛ ولعل هذا يرجع إلى تخصصهم في هذا العلم، وهو " علم التجويد"، الذي يهتم بنطق الحرف بصورة صحيحة، من ناحيتي المخرج، والصفة؛ من أجل تلاوة القرآن بالصورة المطلوبة؛ لأن الإخلال بالمخرج أو الصفة قد يؤدي إلى تغيير المعنى، لذلك كان لابد من إعطاء هذا الجانب حقّه من الرعاية والدّقّة والاهتمام.

الاتجاه الثالث: وهم المحدثون وهؤلاء قد ثبت المصطلح لديهم، أمَّا المفهوم فقد أخذ جانبين، هما: جانب قوّة الإسماع، وجانب الجهد العضلي، ولكنه لا يخرج عن حدود التفسير الصوتي؛ ويرجع السبب في تحديد المصطلح والمفهوم إلى التخصص في المجالات كافة، ومن ضمنها "الصوت" الذي أصبح علما مستقلا برأسه، وصار خاضعا للتجربة، وله أدواته، وأجهزته الخاصة به.

مَعَايِيرُ الْقُوَّةِ الصَّوْتِيَّةِ عِنْدَ اِبْنِ جِنِّيّ فِي الْخَصَائِصِ

يمكن تقسيم الأسس التي سار عليها ابن جني في تفسير معنى القوّة على النحو الآتي:.

أ- القوّة على أساس حقيقة الصوت :

1- الحرف أقوى من الحركة.

قسم علماء العربية القدماء الأصوات اللغوية على حروف وحركات، والحرف هو ما يقابل "الساكن"، أو "الصامت" عند المحدثين، والحركة هي ما تقابل الصائت القصير عند المحدثين. ويرى ابن جني أنَّ ((الحرف أقوى من الحركة))[4] ، ولم يعطِ الدليل على ذلك، ولكن يمكن أن يكون المعيار في ذلك هو ما ذهب إليه ابن جني، وغيره من علماء العربية، من أن الحرفَ أصلٌ، والحركة عَرَضٌ[5]، قال ابن جني: ((الحرف كالمحلّ للحركة، وهي كالعرض فيه، فهي لذلك محتاجة إليه))[6]، فالحركات عنده زوائد، وهذا ما ذهب إليه الخليل وسيبويه قبله[1]، وكذلك أبو علي الفارسي الذي استدلّ على

(1) يُنظر: الرعاية: 16-134، والكشف: 1/137-138، والتمهيد في علم التجويد: 97-100، 157، والمنح الفكرية: 19، وجهد المقل: 165_166.
(2) المنح الفكرية: 19، ويُنظر: الرعاية: 118-120 الكشف: 1/ 137، والتمهيد في علم التجويد:98ـ 99، ولطائف الإشارات: 197ـ198، وجهد المقل: 165-166.
(3) مفهوم القوة والضعف في أصوات العربية: 58_59.
(4) الخصائص: 1/310.
(5) يُنظر: نتائج الفكر: 66_68، والأشباه والنظائر: 2/73_74.
(6) سر صناعة الإعراب: 1/ 28 "مقدمة الكتاب".

مذهبه بكثرة حذفها وتغييرها في الأبنية بخلاف الحروف، قال: ((وهذه الحروف عند الخليل وسيبويه إنها زوائد في الاسم والفعل، فإَن أصل الكلمة أن تكون بغيرها، وهو كما قالوا. والدليل على أنّ ذلك كذلك حذفك لها، وتغييرك إياها في اختلاف الأبنية، وعندما تصوغُ الأمثلةَ))[2].

وعلى الرغم من أن هذه الحركات ـ عندهم ـ هي حركات ثانوية، فإنهم أدركوا حقيقتها؛ فكلتا التسميتين ـ عندهم ـ إنما هي " أصوات"، ولكنّ التفريق بينهما في التسمية راجعٌ إلى كون الحرف أعظم من الحركة[3]، بل إن الحركة هي حرف أَيضا، كما يرى الفارسي؛ إذ يقول: ((وهذا الذي يسميه أهل العربية حركة حقيقة إنه حرف، فالفتحة كالألف، والضمة كالواو، والكسرة كالياء، في أنَّهنَّ حروف، كما أنَّهن حروف، إلا أنَّ الصوت بهن أقلُّ من الصوت بالألف وأُختيها، وقلَّة الصَّوْت بِهنَّ ليس يُخرجهنَّ عن أن يكنَّ حروفا؛ لأنَّ من الحروف ما هو أكثر صوتًا من حروف كـ " الصاد" و" النون" الساكنة، فكما أنَّ النون عندنا حرف، وإنْ كان أقل صوتًا من الصاد، كذلك يجب أنْ تكون هذه عندنا حروفًا، وإنْ كان الصوت بهن أقلُّ من الصوت بما هنّ فيه))[4].

وقد أشار إلى هذه الحقيقة الخليلُ وسيبويه وكذلك ابن جني[5]، لكنَّهم لم يصرحوا بكونها حروفا، وهذا ينطبقُ تمامًا مع الدرس الصوتي الحديث الذي أثبت أنَّ الحركات هي أصوات أَيضا[6]، ولكن هذا عند القدماء ثابت من الناحية النظرية، أمَّا عند تعاملهم معها فقد نظروا إليها نظرة ثانوية؛ ولعلَّ هذا يرجع إلى الرسم الكتابي لها، قال أحد المحدثين: ((فالحركات إذن في نظرهم شيء فرعي أو ثانوي، ولعلَّ من أسباب هذه النظرة عدم وجود رموز مستقلة للحركات، إذ كان الكلام خلوا مما يدلُّ على حركات الأصوات الصامتة، وكان الناس يفهمون كما يقرؤون بالاعتماد على سياق الكلام وما يقتضيه المقام))[7].

ومما يلاحظ أنَّ المعيار هنا هو معيار فلسفي، فالحرف أصل والحركات عرض، وهي تابعة ومحتاجة إلى الحرف، وأنَّ الحرف قد يستغني عنها، فـ "الأصل والفرع، والعرض، وسمة الاحتياج"، كلُّها مصطلحات فلسفية ولا تَمتُّ إلى اللغة بشيء. كما يمكن أنْ يكون المعيار صوتيًّا؛ فقد قال ابن جني: ((الحرف أوفى صوتًا، وأقوى جرسًا من الحركة))[8]؛ إذ إنَّ المقصود بالجرس هو مقدار الضغط على المخرج، فالحرف كلما زيد الضغط على المخرج حال نطقه كان أقوى جرسًا، أي: إنَّ المقصود بالجرس: إنَّما هو المخرج، ولكن إطلاق هذه الصفة عليه إنَّما تكون عند الحديث عن مقدار الضغط على مخرج الصوت فقط، أي: إطلاق في حالة خاصة.

ويؤيد ذلك بعض النصوص، مثل قول الخليل عن الواو والألف والياء بأنَّها لا صوت لها ولا جرس[9]، وذهابه إلى أنَّ هذه الحروف هوائية ولم ينسبْها إلى مخرج معيَّن[10]، ((إذ لا يعتمد اللسان عند النطق بها على موضع من الفم))[11] ومن خلال مقارنة رأيِي الخليل في هذه الأحرف يتضح أنَّ مقصوده من الجرس هو المخرج.

وقال ابن جني عن التاء واللام: ((إنَّك إذا ذقتهما ساكنتين، ووقفت عليهما وجدت الصوت ينقطع عند التاء بجرس قوي، ووجدته ينقطع عند الدال بجرس خفي، وذلك، قولك: " اتْ" و" ادْ"))[12]، ويلاحظ في هذا النص أنَّ المقصود بالجرس هو مقدار الضغط على المخرج، لا قوّة إسماعه؛ لأنَّ الدال صوت مجهور، والتاء صوت مهموس، والمجهور عندهم أعلى

(1) يُنظر: كتاب سيبويه: 4/ 241– 242، والأشباه والنظائر: 2/ 73– 74.
(2) المسائل البغداديات: 489.
(3) يُنظر: شرح المفصل لابن يعيش : 5/ 204، والأشباه والنظائر: 2/ 77.
(4) المسائل البغداديات:487_488، ويُنظر: المسائل العسكريات: 127.
(5) يُنظر: كتاب سيبويه: 4/242، 318، والخصائص: 3/ 121، وسر صناعة الإعراب: 1/ 17، 23.
(6) يُنظر: قوة الصوت عند القدماء في ضوء علم اللغة الحديث (بحث): 4.
(7) دراسات في علم اللغة: 85، ويُنظر: فصول في فقه العربية: 397، وفقه اللغة لـ"محمد المبارك": 154، وفي الأصوات اللغوية ـ دراسة في أصوات المد العربية: 109.
(8) الخصائص: 2/ 323.
(9) يُنظر: كتاب العين: 15/6 (جرس).
(10) يُنظر: كتاب العين: 1/ 57 (مقدمة الكتاب).
(11) الرعاية: 127، ويُنظر: التمهيد: 102– 103.
(12) سر صناعة الأعراب: 2/ 814، ويُنظر: الخصائص: 1/ 54– 55.

إسماعا من المهموس[1]، فمراد ابن جني _كما يفهم من ظاهر النص_ من "الجرس" هو حبس الهواء عند المخرج، ورأيه ينطبق تماما مع ما أقره الدرس الصوتي الحديث من أن الصوامت الانفجارية المهموسة كـ "التاء" مثلا يكون حبس الهواء معها أحكم منه مع الصوامت الانفجارية المجهورة كـ"الدال" مثلا، فالأولى تحتاج إلى جهد عضلي أكثر من الأخرى[2]. ومن المحدثين من أشار إلى أنَّ ابن جني كان يفرق بين مصطلحين، هما: "الجرس"، و"الصدى"، فهو يطلق لفظ "الجرس" على الصوامت؛ ليشير إلى الاحتكاك الذي فيها، ولفظ "الصدى" على حروف المدّ؛ ليشير إلى خاصيتها الإسماعية؛ قال: ((ابن جني قد فرَّق تفريقًا واضحا بين ما يمكن أنْ يطلق عليه "القوة التصويتية" في الصوامت، و"القوة التصويتية" في أصوات المد، ولعلَّه من أجل ذلك استعمل للدلالة على كل ضرب من هذه القوة التصويتية مصطلحًا بعينه، فنراه يشير بمصطلح "جرس" إلى تلك القوة التصويتية التي في الصوامت، ويبدو أنَّه قد فهم من هذا المصطلح أنَّ القوة التصويتية في هذه الأصوات إنما يرجع إلى ظاهرة الاحتكاك، بل هو يشير إلى ذلك بشيء من الصراحة، إذ يذهب إلى أنَّ أجراس الحروف تختلف باختلاف مقاطعها، أي: "أماكن إعاقة الهواء في أثناء نطقها"، ثمَّ يشير إلى القوة التصويتية في أصوات المد بمصطلح "صدى" وهو كما أحسبُ مصطلح دقيق في التلميح إلى كون هذه القوة لم تنتج من جراء حدوث احتكاك))[3]. وبذلك يكون المراد من قول ابن جني أنَّ الحرف أقوى جرسًا من الحركة هو أنَّ مقدار الضغط على المخرج عند النطق بالحرف يكون أقوى منه عند نطق الحركة، أي: إنَّ الحرف أثقل من الحركة، بمعنًى آخر: إنَّ الجهد العضلي المبذول لنطق الحرف أكثر منه عند النطق بالحركة، ((وما من شكٍّ في أنّ هذه الحروف عند نطقها أثقل بكثير من الحركات التي تمتاز بجهرها وسعة مخارجها، الأمر الذي يترتب عليه سهولة نطقها))[4]. فيكون المعيار الذي يعتمد عليه في معرفة قوة الصوت هنا معيارًا صوتيًّا، وهو الجهد العضلي المبذول عند النطق بالحرف.

2ـ المتحرِّك أقوى من الساكن:.

لمّا كانت الحركة تابعة للحرف، عند النحاة القدماء، فالحرف إما أنْ يكون ساكنًا، أي: لا تتبعه حركة، وإمّا أنْ يكون متحركًا، أي: متبوعا بحركة قصيرة تقلقه ((وتجتذبه نحو الحروف التي هي أبعاضها))[5]؛ وهذا سبب تسميتها بالحركة كما يرى ابن جني[6]، وعنده أنَّ الحرف المتحرك أقوى من الساكن، وربُّما يكون معياره في ذلك هو أنَّ ما يصيب السواكن من الإعلال أكثر مما يصيب المتحركات، قال: ((والإعلال إلى السواكن لضعفها أسبق منه المتحركات لقوتها))[7].

وقد ذكر ذلك النحويون عند حديثهم عن حروف العلة وما يصيبها من التغيير، وبينوا أنَّ هذه الأحرف إذا تحركت قويت بالحركة، فلا يقع عليها التغيير[8]، يقول الرضي: ((وإنَّما لم تقلب المتحركة التي ليست لاما ؛ لكسرة ما قبلها؛ لقوتها بالحركة...))[9]، وليس الحرف المتحرك وحده هو الذي يقوى بالحركة، بل ما يقع موقع الحرف المتحرك يكون قويًّا أَيضا؛ قال ابن جني: ((ومن ذلك امتناعهم من الإلحاق بالألف إلا أنّ تقع آخرًا، نحو: أرطى، ومعزى... وذلك أنّها إذا وقعت طرفًا وقعت موقع حرف متحرك، فدلَّ على قوتها عندهم))[10]؛ لأنَّ ((الحرف الأخير موضع حركات الإعراب والبناء في الكلمات، وهذا يبرهن على قوته عند العرب))[11].

ولا ينحصر هذا الكلام في حروف العلة، بل يتعداه أَيضا إلى الحروف الصحيحة؛ إذ قال في معرض حديثه عن قلب الصاد زايًا في كلمة "يصدر" و"قُصِد" بعد تسكين الصاد في "قُصْد" للتخفيف قال: ((فلما سُكنت الصاد... قلبوها إلى

(1) يُنظر: الحجة لأبي علي الفارسي: 514، والمحتسب: 1/ 59، والجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات: 68.
(2) ينظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: 152، والجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات: 320.
(3) في الأصوات اللغوية ـ دراسة في أصوات المد العربية: 86ـ87.
(4) قوة الصوت عند القدماء في ضوء علم اللغة الحديث (بحث): 4.
(5) سر صناعة الإعراب: 27/1.
(6) السابق: 26/1.
(7) الخصائص: 1/ 89.
(8) يُنظر: كتاب سيبويه: 4/ 335ـ 336، و256، والتصريف الملوكي:50، وشرح المفصل لابن يعيش: 5/ 222، 237، وشرح شافية ابن الحاجب: 230/1، 2/ 300، 3/ 232.
(9) شرح شافية ابن الحاجب: 84/3.
(10) الخصائص: 319/1.
(11) الصيغ الثلاثية مجردة ومزيدة: 24.

أشبه الحروف بالدال من مخرج الصاد، وهي الزاي... فقالوا: "فُزْد"، فان تحركت الصاد لم يجُز فيها البدل؛ وذلك نحو: "صَدَر"، و"صدف" لا تقول فيه: "زدر"، و"زدف"؛ وذلك أنَّ الحركة قوّت الحرف وحصّنته، فأبعدته من الانقلاب))[1].

ويلاحظ أنَّ المعيار المعتمد هنا هو معيار صرفي وليس له علاقة بالجانب الصوتي؛ لأنَّه إنْ فُسِّر على أساس صوتي كان المتحرك هو الأولى بالتغيير؛ لأنّه أثقل من الساكن.

ب ـ **قوّة الصوت على أساس موقعه:.**

1ـ قوّة الحرف الموقوف عليه:ـ

من المعلوم أنّ الحرف عند القدماء لا يقع إلا ساكنًا أو متحركًا، والساكن إما أنْ يكون حشوًا أو آخرًا، وحاله من حيث إعطاؤه حقه يختلف باختلاف هذه الأحوال، فأقوى أحواله أن يكون ساكنا موقوفا عليه، ويلي ذلك أنْ يكون واقعا في حشو الكلمة وهو ساكن، ثُمَّ وقوعه متحركا ثالثا؛ وعلل ابن جني ذلك بأنَّك تُتْبِع الصوت إذا وقفت عليه صُوَيْتا متتما له، وهذا الصُّويت لا يمكن أنْ يتبع المتحرك، كما أنّ الساكن الذي يقع حشوًا يفقد جزءًا من ذلك الصويت؛ لتأهّبك لنطق الحرف الذي يليه[2]، ((ويزيد في بيان ذلك أنك تقول في الوقف: "النفسْ، فتجد السين أتم صوتًا من الفاء، فإنْ قلبتَ، فقلت: النسف، وجدت الفاء أتمَّ صوتًا))[3]، والسبب في إتباع الصُّويت الحرف هو التلبث عليه، ولا يمكن ذلك في المتحرك، كما أنَّ الساكن الواقع حشوا يكون التلبث عليه أقل من التلبث على الساكن الواقع آخرا؛ قال ابن جني: ((فأقوى أحوال ذلك الصويت عندك أنْ تقف عليه، فتقول: "اصْ"، فإنْ أنت أدرجته انتقصت بعضه، فقلت: اصبر، فإنْ أنت حركته اخترمت الصوت البتة، وذلك قولك: صَبَرَ))[4]. وأشار سيبويه إلى هذا المعنى عندما تحدث عن الصوت الذي يتبع حروف القلقلة، وما أطلق عليه " النفخة" الذي يتبع حروف الزاي، والضاد، والظاء، والذال، وجميع الحروف المهموسة؛ إذ قال: ((واعلم أن هذه الحروف التي يسمع معها الصوت والنفخة في الوقف، لا يكونان فيهن في الوصل إذا سكَنَّ؛ لأنك لا تنتظر أن ينبو لسانك؛ ولا يفتر الصوت حتى تبتدئ صوتًا، وكذلك المهموس، لأنك لا تدع صوت الفم يطول حتى تبتدئ صوتًا، وذلك قولك: أيقظ عميرًا، وأخرج حاتمًا وأحرز مالًا، وأفرش خالدًا، وحرك عامرًا. وإذا وقفت في المهموس، والأربعة، قلت: أفرش، وأحبس؛ فمددت، وسمَّعْت النفخ، فتفطَّن. وكذلك: الفظ وخذ، فنفخت فتفطَّن... ولا يكون شيء من هذه الأشياء في الوصل؛ نحو: أذهب زيدًا؛ وخذهما واحرسهما؛ كما لا يكون في المضاعف في الحرف الأول إذا قلت: أحذَّ؛ ودقَّ؛ ورشَّ))[5]. كما أشار إلى ذلك المبرد عند حديثه عن الصويت الذي يتبع حروف القلقلة في حال الوقف الذي أطلق عليه اسم "النبرة"، قال: ((فمنها القاف والكاف، إلّا أنّها دون القاف؛ لأنَّ حصْرَ القاف أشد. وإنما تظهر هذه النبرة في الوقف، فإن وصلتَ لم يكن؛ لأنَّك أخرجت اللسان عنها إلى صوت آخر، فحلت بينه وبين الاستقرار))[6]. وهذان النصان نفهم منهما صحة ما ذهب إليه ابن جني من أنَّ التلبث على الحرف في حال الوقف يعطي الصوت حقّه، أما في حال الوصل فلا يمكن التلبث على الحرف؛ مما يؤدي إلى أن يفقد جزءًا من حقّه.

فالصوت الموقوف عليه آخرًا هو أكثر تمكُّنا، وتوفية من الساكن الواقع حشوًا، ولكن يظهر في نص آخر لابن جني ما يدلُّ على عكس هذا، وهو أنَّ الحرف إذا وقع حشوا بَانَ، وإذا وقع آخِرًا خفيَ، وقد ذكر ذلك عند حديثه عن السبب في إتباع هاء السكت ألف الندبة، ويمكن حل هذا التناقض من خلال قراءة نصٍّ له وتفسيره من وجهة نظر جديدة، قال:

((هذا القدر من الصوت إنّما هو متمم للحرف ومُوَفٍّ له في الوقف، فإذا وصلت ذهب أو كاد، وإنَّما لحقه في الوقف؛ لأنَّ الوقف يُضعف الحرف ألا تراك تحتاج إلى بيانه فيه بالهاء، نحو: واغلاماه، ووازيداه، وواغلامهوه وواغلامهيهْ؛

(1) سر صناعة الإعراب: 1/ 51.
(2) يُنظر: الخصائص:1/ 57– 58، وسر صناعة الإعراب: 1/ 7 (المقدمة)، وشرح المفصل لابن يعيش: 5/ 215.
(3) الخصائص: 1/ 60.
(4) السابق: 1/ 58، ويُنظر: شرح المفصل لابن يعيش:215/5.
(5) كتاب سيبويه: 175/4– 176.
(6) المُقْتَضَب: 1/ 332.

وذلك أنَّك لمّا أردت تمكين الصوت وتوفيته ليمتد ويقوى في السمع وكان الوقف يضعف الحرف ألحقت الهاء ليقع الحرف قبلها حشوًا فيبين ولا يخفى))[1].

فالصوت هو السبب في إعطاء الحرف حقّه؛ والعلةُ في ذلك أنّ هذا الصويت كأنما جعل من الحرف الموقوف عليه حشوًا، ولكنه ـ الصويت ـ ليس بغريب عن الحرف، وإنَّما هو داخل في تكوين الحرف، ومن حقيقته، وجنسه؛ لذلك لم يفقد الحرف ذلك الجزء من حقه، وهذا التفسير يمكن حمله على صوت "الألف"؛ بأنَّ هاء السكت هي بمثابة الصويت الذي يتبع الحرف عند الوقف؛ لأنَّ الألف إذا وُقِف عليها آخرًا ((خفيت، حتى ظُنَّ أنّ آخر الكلمة مفتوح... واختاروا أنْ يكون ذلك الحرف هاءً لمناسبتها بخفائها حرف اللين، فإذا جاءت ساكنة بعد الألف، فلابدَّ من تمكن مد الألف))[2].

ويرى الباحث أنَّ اختيار الهاء نيابة عن الصويت الذي يتبع الحرف دون غيره هو أنّها تشبه الصويت الذي هو أشبه ما يكون بنفس يجري مع الصوت، فلولا الاحتكاك الخفيف في مخرجها لكانت مجرد هواء[3]، وهذا ما يمكن أنْ يحمل عليه نص ابن جني.

2ـ القوة في حروف ميزان الكلمة(الفاء، والعين، واللام).

التغيُّر الذي يصيب حروف الكلمة من حيث الموقع لا يكون بمستوى واحد، وإنّما يكون بنسبة متفاوتة، ومقدار التغير هذا هو الحاكم على قوة الحرف أو ضعفه، والعلاقة عكسية بين مقدار التغير وقوة الحرف؛ لذلك يرى ابن جني أنَّ الفاء أقوى من العين، كما أنَّ العين أقوى من اللام[4]، وقد أشار سيبويه إلى ذلك بقوله: ((اعلم أنَّهنَّ لاماتٍ أشدُّ اعتلالًا وأضعفُ، لأنَّهنَّ حروف إعراب، وعليهنَّ يقع التنوين، والإضافة إلى نفسك بالياء، والتثنية، والإضافة، نحو هنيٍ، فإنَّما ضعفت؛ لأنها اعتمد عليها بهذه الأشياء. وكلما بعدتا من آخر الحرف كان أقوى لهما، فهما عينات أقوى، وهما فاءات أقوى منهما عينات ولامات، وذلك نحو: غزوت، ورميت))[5]، وقد ذهب الفارسي إلى هذا أيضا مردّدا كلام سيبويه[6]، والذي يُلاحظ من نص سيبويه، ومن ذهب مذهبه أنّهم يعللون تلك القوة بالتقدم؛ لأنّ الحرف المتقدم يكون أقل عرضة للتغيير من بقية حروف الكلمة[7]، ولكننا نجد في موضع آخر لابن جني يرى فيه أنّ العين أقوى من الفاء واللام، وهذا يتناقض مع قوله السابق من أن الفاء أقوى من العين؛ قال: ((والعين أقوى من الفاء واللام وذلك لأنها واسطة لهما ومكنوفة بهما فصارا كأنهما سِيَاج لها ومبذولان للعوارض دونها، ولذلك تجد الإعلال بالحذف فيهما دونها. فأما حذف الفاء ففي المصادر من باب وعد، نحو: العِدة، والزِنة، والطِدة، والتِدَة، والهبة، والإبة، وأمّا اللام، فنحو: اليد، والدم، والفم، والأب، والأخ، والسنة، والمائة، والفئة، وقلّما تجد الحذف في العين))[8]، فالملاحظ أنَّ هذا القول يتناقض مع قوله السابق من أنَّ الفاء أقوى من العين، وعلى أية حال فإنَّ هذا النص يؤخذ عليه أمران، هما:.

الأول: أنَّه عامل اللغة معاملة مادية حسية، وهذا بقوله: "فصارا كأنهما سِيَاج لها ومبذولان للعوارض دونها"، واللغة بعيدة عن التفسيرات الحسية الملموسة؛ وربُّما ذهب إلى ذلك ليؤيد ما ذهب إليه من أنَّ العين هي الدليل على قوة المعاني.

الثاني: ذِكْرُهُ الحذفَ فقط فيما يقع على الحرف من تغيير مع أنّه ذكر أنواعا كثيرة جدًّا من التغييرات عند إثباته أنَّ اللام أضعف من العين، ولم يذكر الحذف فقط[9]، فالمعيار في قوة الحرف هو مقدار التغير الذي يناله، فالمعيار هنا صرفي.

- **القُوّة في الحركاتِ وأصواتِ المدِّ.**

(1) الخصائص: 2/ 328.
(2) شرح الرضي على الكافية: 4/ 498، ويُنظر: الخصائص: 129/3.
(3) ينظر: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: 59.
(4) ينظر: الخصائص: 1/ 392، 393، 2/ 48.
(5) كتاب سيبويه: 381/4.
(6) يُنظر: المسائل العسكريات: 128ـ 129.
(7) ينظر: الأصول في النحو لابن السراج: 363/3، والتصريف الملوكي: 49، والخصائص: 485/2، وسر صناعة الإعراب: 788/2.
(8) الخصائص: 2/ 155.
(9) يُنظر: الخصائص: 484/2_487.

الحركات الرئيسة في اللغة العربية عند القدماء من علماء العربية ثلاث حركات، هي "الضمة والفتحة والكسرة"، وزاد عليها المحدثون أصوات المد الثلاثة "الألف والواو والياء" ويرى ابن جني أنّ الضمة أثقلها[1]، وهذا ما ذهب إليه جميع علماء العربية[2]، وعللوا ذلك بأنها تحتاج إلى جهد أكثر من أختيها عند نطقها؛ فقد أورد السيوطي نصًّا على لسان الخليل يشرح فيه سبب ثقل الضمة؛ جاء فيه: ((قال رجل للخليل: لا أجد بين الحركات فرقًا، فقال له الخليل: ما أقل مَنْ يميز أفعاله! اخبرني بأخف الأفعال عليك، فقال: لا أدري، قال: أخف الأفعال عليك السمع؛ لأنّك لا تحتاج فيه إلى استعمال جارحة، إنَّما تسمعه من الصوت وأنت تتكلف في إخراج الضمة إلى تحريك الشفتين مع إخراج الصوت، وفي تحريك الفتحة إلى تحريك وسط الفم مع إخراج الصوت، فما عمل فيه عضوان أثقل مما عمل فيه عضو واحد))[3]، والمراد بالعضوين هو الشفة العليا والسفلى، وقد ذكر الشلوبين مثل هذه العلة في ثقل الضمة[4]، ومع غض النظر عن إدراكهم ارتفاع أقصى اللسان عند النطق بالضمة فإنّهم عرفوا السبب في ثقل الحرف، وهو الجهد المبذول في نطقه، وقال الفراء:

((فإنَّما يُستثقل الضمّ والكسر لأن لمُخرجيهما مؤونة على اللسان والشفتين تنضمّ الرَفعة بهما فيثقل الضمَّة ويُمال أحدُ الشِّدْقين إلى الكسرة فترى ذلك ثقيلًا، والفتحة تَخرج من خَرْق الفم بلا كُلْفة))[5]، وهذا النص يبين إدراك الفراء ارتفاع اللسان عند النطق بالضمة والكسرة، فضلًا عن تحريك الشفتين عند نطق الضمة، مما يؤدي إلى بذل جهد أكبر من أُختيها عند نطقها؛ ولذلك كانت الضمة علامة للرفع في العُمد؛ لأنَّ العُمَد أقوى من الفضلات فاختير لها أقوى الحركات[6].

وقد فسَّر ابن جني هذا الأمر تفسيرًا صوتيًّا؛ إذ قال: ((إنّما يقدّمون الأثقل ويؤخّرون الأخفّ من قِبَل أنّ المتكلم في أوّل نطقه أقوى نَفْسا وأظهر نشاطًا، فقدّم أثقل الحرفين، وهو على أجمل الحالين، كما رفعوا المبتدأ لتقدّمه، فأعربوه بأثقل الحركات، وهي الضمة، وكما رفعوا الفاعل؛ لتقدمه، ونصبوا المفعول؛ لتأخّره، فإنّ هذا أحدُ ما يحتجّ به في المبتدأ والفاعل، فهذا واضح كما تراه))[7]، أي: إنَّ المتكلم في أول نطقه يكون أكثر نشاطًا فيختار أثقل الحركات نطقًا، وهي الضمة. وبيّن ابن جني أنَّ المراد من الثقل هنا هو قوة الضمة، قال: ((والضمةُ وإنْ كانت أثقل من الكسرة، فإنّها أقوى منها))[8]، يستشف من هذا النص أنَّ الشائع عند إطلاق لفظ "الثقيل" على شيء ما، فذلك دليل على ضعفه، ولكن الأمر يختلف، بل هو على العكس من ذلك، عند إطلاقه على الحركات، كما أن تعاقب مصطلحي "الأثقل" و"الأقوى" على الضمة عندهم[9]، يثبت ترادف المصطلحين، وما ذهب إليه علماء العربية مما للضمة من ثقل أثبته الدرس الحديث، فـ((الضمة هي التي تحتاج إلى جهد عضلي أكثر؛ لأنَّها تتكون بتحريك أقصى اللسان، في حين أنّ الكسرة تتكون بتحريك أدنى اللسان، وتحرك أدنى اللسان أيسر من تحرك أقصاه))[10].

هذا فيما يتعلق بالحركات "الصوائت القصيرة" أمّا أصوات المدّ" الصوائت الطويلة" فحكمها حكم الحركات؛ لأنَّ حروف المدّ إنَّما هي حركات طويلة، كما يرى ابن جني، قال: ((اعلم أنَّ الحركات أبعاض حروف المدِّ واللين، وهي: الألف، والياء، والواو، فكما أنَّ هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث، وهي: الفتحة، والكسرة، والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو... ويدلك على أنَّ الحركات أبعاض لهذه الحروف أنّك متى أشبعت واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذي هي بعضه))[11]، وللخليل وسيبويه السبق في ذلك[12]، وهذا ما يؤيده الدرس الصوتي

(1) السابق: 1/ 55، 68، 69، 378.
(2) يُنظر ـ مثلا ـ : كتاب سيبويه: 4/ 115،114،113، وأسرار العربية: 37، 56، 165، ونتائج الفكر: 312، وشرح المفصّل لابن يعيش: 210/1، وشرح شافية ابن الحاجب: 193/1، 3/ 166، والأشباه والنظائر: 2/ 64، 3/ 221.
(3) الأشباه والنظائر: 43/2.
(4) ينظر: شرح المقدمة الجزولية الكبير: 426/1.
(5) معاني القرآن للفراء: 2/ 13.
(6) يُنظر: شرح الرضي على الكافية : 62/1، وشرح التسهيل: 265/1.
(7) الخصائص: 1/ 55.
(8) السابق: 1/ 69.
(9) ينظر: أسرار العربية: 37، 56، 165، ونتائج الفكر: 312، وشرح المفصل لابن يعيش: 201/1، 202.
(10) في اللهجات العربية: 85.
(11) سر صناعة الإعراب: 1/ 17-18.
(12) يُنظر: كتاب سيبويه: 242/4، 318.

الحديث، فالمحدثون يرون أنْ لا فرق بين الحركات وحروف المدّ سوى في كمية الصوت[1]؛ ولذلك يرى ابن جني وغيره أنّ الواو أثقل من الياء والألف[2]، قال سيبويه، مبينًا العلة في ذلك: ((وإنما خفت الألف هذه الخفة لأنه ليس لها علاج على اللسان، ولا تحرك أبدا، فإنَّما هي بمنزلة النفَس، فمن ثم لم تثقل ثقل الواو عليهم ولا الياء، لما ذكرت لك من خفة مؤونتها))[3]، وهذا يبين أنَّ الواو والياء لهما علاج (جهد) على اللسان، الذي هو السبب في ثقلهما، وقد قيل: إنّ ((الواو أقوى من الألف؛ لأنَّها أضيق مخرجًا))[4]، فضيق المخرج هو السبب في قوة الواو، لان مخرج الحرف إذا ضاق احتاج إلى جهد عضلي أكثر لنطقه، فالمعيار هنا صوتي، وهو الجهد العضلي المبذول في نطق الصوت.

أمَّا من ناحية قوة إسماعها فقد ذهب ابن جني إلى أنَّ حروف المدِّ قد اتسعت مخارجها وأوسعها حرف الألف[5]، وقد ذكر ذلك سيبويه قبله[6]، وتبعه علماء العربية، قال الرضي: ((فأوسعهنَّ مخرجا الألف، ثم الياء، ثم الواو))[7].

ويرى المحدثون أن الصوت كلما قلت العوائق عند نطقه كان أقوى إسماعا[8]؛ لذلك فإنّ أقوى الأصوات إسماعا هي الحركات بنوعيها؛ لسهولة نطقها، وأعلاهن صوتًا الألف، لكن القدماء لم يشيروا إلى قوة إسماعها بصورة واضحة وصريحة، بل إنّنا نجد ما يشير إلى العكس من ذلك، ومن ذلك قول ابن جني عن السبب في إلحاق هاء السكت ألف الندبة: ((وذلك أنَّك لمّا أردت تمكين الصوت وتوفيته ليمتد ويقوى في السمع وكان الوقف يضعف الحرف الحقت الهاء ليقع الحرف قبلها حشوا، فيبين ولا يخفى))[9].

وهذا المعنى ذكره أغلب النحويين عند حديثهم عن إلحاق هاء السكت مدة الندبة، وبينوا علة ذلك أنَّ الألف حرف خفيّ؛ فاحتيج إلى بيانه بهاء السكت[10]. ووَصَفَ ابن جني الواو بأنّها دون الهمزة صوتًا[11]، وقال سيبويه: ((وهذه الثلاثة أخفى الحروف لاتساع مخرجها، وأخفاهن وأوسعهن مخرجاً الألف، ثم الياء، ثم الواو))[12]، غير أنَّ المقصود من الخفاء ـ في أغلب الظن ـ هو خفاء المخرج، لا خفاء الصوت وهناك من النصوص التي تقوي ذلك، قال ابن يعيش : ((الهمزة حرف خفي؛ لأنّه أدخلُ الحروف إلى الحلق، وكلما سَفِلَ الحرف خفيَ جرسه، وحروف اللين والمد أبْيَنُ منها؛ لأنَّها أقرب إلى الفم، فالواو من الشفتين، والياء من الفم، والألف وإنْ كان مبدؤها الحلق إلّا أنَّها تمتد حتى تصلُ إلى الفم))[13]، وقوله: ((الألف خفية وهي أدخل في الحلق قريبة من الهمزة، والياء أبين منها؛ لأنّها من الفم، فكانت أخفى منها))[14]، وعلى هذا يتضح أنَّ الحرف كلما اقترب من الحلق خفيَ مخرجه، وكلَّما اقترب من الفم وَضُحَ مخرجه، ولا يمكن أنْ يكون مراده من الخفاء خفاء الصوت؛ لأنَّ قوله "خفيَ جرسه" بمعنى: خفي مخرجه، كما أنَّ بيانه لمخرج الواو والياء والألف يُثبت أنَّ مراده هو بيان المخرج وخفاؤه لا غير.

وجاء في التذييل والتكميل كلام يوضح أن الضمة ((هي أظهر الحركات... لوجهين، أحدهما: أنَّها من الواو، ومخرجها من الشفتين، وهو مخرج ظاهر، بخلاف الفتحة والكسرة فإنَّهما من الألف والياء ومخرجاهما من باطن الفم، والثاني: أنّ الضمة يمكن الإشارة إليها بالإشمام))[15].

---

(1) يُنظر: الأصوات اللغوية: 37، والمدخل إلى علم اللغة:96-97.
(2) يُنظر: الخصائص: 3/ 18-19، وكتاب سيبويه: 167/4، وأسرار العربية: 53، وشرح شافية ابن الحاجب: 22/2 3/ 76، 166.
(3) كتاب سيبويه: 335/4-336.
(4) شرح المفصل لابن يعيش: 201/1– 202.
(5) ينظر: سر صناعة الإعراب: 1/ 8 (المقدمة).
(6) ينظر: كتاب سيبويه:4/ 176.
(7) شرح شافية ابن الحاجب: 3/ 261.
(8) يُنظر: دراسة الصوت اللغوي: 288، وعلم الأصوات: 202.
(9) الخصائص: 2/ 328.
(10) يُنظر: كتاب سيبويه: 4/ 165، والمسائل المنثورة: 225، وأسرار العربية: 135، وشرح المفصل لابن يعيش : 1 / 350، وشرح الرضي على الكافية: 4/ 498.
(11) يُنظر: الخصائص: 2/ 160.
(12) كتاب سيبويه: 4/ 436، ويُنظر: شرح شافية ابن الحاجب: 3/ 261.
(13) شرح المفصل لابن يعيش: 5/ 219.
(14) السابق: 5/ 225.
(15) التذييل والتكميل: 3/ 243.

والواضح من هذا النص أن المقصود بالظهور هو بيان المخرج، وجاء في لطائف الإشارات: ((الحروف الخفية، وهي أربعة: الهاء، وحروف المد الثلاثة؛ لخفائها في اللفظ، إذا اندرجت بعد حرف قبلها... والألف أخفى هذه الحروف؛ لأنه لا عمل للسان فيها، ولا مخرج تنسب إليه على الحقيقة، ولا تتغير))[1]، فالألف خفية؛ لأنها ليس لها مخرج، وإنْ كان المقصود بالخفاء بالنسبة لهذه الأحرف هو خفاء المخرج عند علماء العربية، فينبغي التعريج هنا على إشاراتهم التي تدل على تنبههم لخاصية الإسماع التي تمتاز بها هذه الأحرف، ومن تلك الإشارات:.

- ❖ إطلاق ابن جني على هذه الأحرف لفظة "مصوتة" وهو لفظ قد أطلقه المبرِّد عليها من قبله، وقال احد المحدثين معلِّقا على هذه التسمية : ((المصوتات مفردها "مصوت" وهو مصطلح مشهور عند اللغويين، وقد أشار إليه ابن جني في خصائصه... وأطلقه على حروف المد، أو الحركات الطويلة، وهو إطلاق بارع ـ كما ترى ـ لما تمتاز به هذه الحركات، أو "المصوتات" من قوة الوضوح السمعي... على ما هو معروف عند الدارسين المحدثين، ولا يختلف عنه في هذا النهج الدقيق من سمى هذه الحروف المدية بالحروف الصائتة، وجمعها "صوائت" إلا أنّ الأول مأخوذ من "صوَّت" بتشديد الواو، والثاني "صات"، وكلاهما صحيح في الدلالة على المعنى المقصود))[2].
- ❖ ما ذهب إليه ابن جني، وقبله الخليل وسيبويه، وغيرهم، من أنّ هذه الحروف قد اتسعت مخارجها أكثر من بقية الحروف؛ إذ يرى المحدثون أنّ الصوت كلما اتسع مخرجه زادت قوة إسماعه، ولكن القدماء لم يربطوا بين اتساع المخرج وقوة الإسماع.
- ❖ قال ابن جني مميزًا الألف عن أُختيها: ((فالألف... أمَدّهنّ صوتًا وأنداهنّ وأشدّهنّ إبعادًا "وأنآهنّ"))[3]. وفي هذا النص إشارة إلى خفاء مخرجها، وكذلك إلى علوِّ الصوت فيها أكثر من أُختيها؛ لأنَّ المعنى اللغوي للندي هو علو الصوت، قال الخليل: ((وفُلانٌ أنْدَى صوتًا من فلانٍ أي أبعدُ مذهبًا وأرفعُ صوتًا)) [4] وعند ضم هذا النص مع القول باتساع مخرجها أكثر من أُختيها نصل إلى أنَّ الألف أعلى صوتًا من بقية الأصوات جميعًا، ومع وجود ما يدلُّ على إدراكهم لقوة إسماعها، إلَّا أنّنا لا نجدهم يصرحون تصريحا واضحا بذلك، وكذلك لم يشيروا إلى كونها أعلى من الأصوات الصحيحة إسماعا.

ومن الضوابط التي وضعها ابن جني لبيان قوة بعض هذه الأحرف " أحرف العلة"، قولُه: ((الحركة إنّما يحملها ويسوغ فيها من الحروف الأقوى لا الأضعف))[5]؛ لذلك يرى أنَّ الواو والياء أقوى من الألف لقبولهما الحركة، أمّا الألف فلا تقبلها، وقبولُهما للحركة مستثقلٌ، لذا هما أضعف من الحروف الصحيحة التي يسهل تحريكها؛ قال: ((ولو لم يعلم تمكّن هذه الحروف في الضعف إلاّ بتسميتهم إيّاها حروف العلّة لكان كافيا... وذلك أن تحمّلهما للحركة أشقّ منه في غيرهما... يؤكّد ذلك عندك أنّ أَذهب الثلاث في الضعف والاعتلال الألف، ولمَّا كانت كذلك لم يمكن تحريكها البتّة))[6]. وهذا الكلام لا يفهم منه أنَّ الحرف يقوى بالحركة الذي تحدثنا عنه سابقا، لأنَّ الحكم على قوة الحرف هنا مسبّقٌ بحسب استساغته للحركة، أمّا هناك فالحكم يكون بعد تحريك الحرف، فالمعيار في هذا الموضع صوتي، وفي الموضع السابق صرفي.

إلّا أنَّ كلام ابن جني يرفضه الدرس الصوتي الحديث جملة وتفصيلًا؛ لأمرين اثنين:.

الأمرُ الأول:

أنّه عامل الواو والياء المتحركتين معاملة حروف العلة، لا معاملة الحروف الصحيحة، مع أنَّهما عند المحدثين من الحروف الصحيحة "الصوامت"؛ إذ إنَّهما ((يؤديان وظيفة الأصوات الصامتة بلا فرق، ولكن طريقة نطقهما تقربهما من الأصوات "الممتدة" حيث ينفد الهواء محدثا نوعا خفيفا من الاحتكاك، كما تقربهما من الحركات؛ بسبب مرور هوائهما

(1) لطائف الإشارات:200، ويُنظر: الرعاية: 127، والتمهيد في علم التجويد: 103.
(2) علم الأصوات: 125–126.
(3) الخصائص: 1/ 155.
(4) العين: 8/ 78 (ندي).
(5) الخصائص: 2/ 291.
(6) السابق: 291/2.

بشيء من الحرية عند النطق بهما))[1]؛ لذلك أطلقوا عليها أنصاف أصوات اللين، أو أنصاف الحركات، أو أنصاف الصوامت[2]، وقد تنبه ابن جني إلى ذلك؛ إذ قال: ((أنَّ الياء والواو لما تحركتا قويتا بالحركة فلحقتا بالحروف الصحاح))[3]. وقد علق احد المحدثين على ذلك بقوله: ((فعدّه الواو والياء في هذه السياقات، ونحوها من الأصوات الصامتة، أو حكمه عليهما بأنَّهما يضارعان، أو يشبهان هذه الأصوات يتفق في أساسه مع ما وصل إليه الرأي في الحديث))[4].

كما تنبه إلى ذلك سيبويه من قبل، فقد قال: ((وإذا قلت: أريد أن أعطيَه حقه فنصبت الياء فليس إلا البيان والإثبات، لأنّها لما تحركت خرجت من أن تكون حرف لينٍ، وصارت مثل غير المعتل نحو باء ضربه))[5]. وهذا النص لا يثبت خروجها عن كونها حرف لين، فحسب، بل يبين كذلك كونها تشبه الحرف الصحيح من حيث الوظيفة، وهذا ينطبق تماما مع ما قرره الدرس الصوتي الحديث[6].

الأمر الثاني:.

أنَّ ابن جني عامل الألف معاملة الحرف ولم يعامله معاملة الحركة، والذي يراه الدرس الصوتي الحديث هو أنْ لا فرق بينه وبين الحركة سوى في كمية الهواء الخارج عند النطق بأحدهما قياسًا بالآخر، فهي حركة طويلة، و((على الرغم من أنّ رجلا كابن جني قد قرر "إنّ الحركات أبعاض حروف المد"، لكن هذه الملاحظة لم تؤتِ أثرها في مسلك القدماء حيال هذه الأصوات الطويلة وأجزائها، فالقاف من "قال"، والميم من "رمى"، كلا الحرفين محتمل لحركة تسبق الألف، وهو خلط لا تقبله الدراسة الحديثة؛ لأنَّ القاف متحركة بالفتحة الطويلة بعدها، وكذلك الميم))[7]. والسبب في هذا الخلط الذي وقع فيه القدماء يرجع إلى الرسم الكتابي للحروف والحركات، فالواو والياء المتحركتان "الاحتكاكيتان" تشبهان الواو، والياء المديتين "الحركة الطويلة" رسما، لذلك عُوملتْ المعاملة نفسها؛ لأنَّ الحركة ذات القيمة الثانوية لا يمكن أنْ تُخرِج حرف العلة من إعلاله إلى حيز الحروف الصحيحة، كما أنَّ الألف تشبه الحروف الصحيحة رسمًا؛ لذلك عُومِلت معاملة الحروف، ولم تُعامل معاملة الحركات، قال أحدُ الباحثين المحدثين: ((وقد وقعوا في هذا الخطأ بسبب أنَّ الخط العربي يرمز للحركات الطويلة برمز في داخل بنية الكلمة، بعكس الحركات القصيرة))[8]، ((وقد أدى هذا الازدواج في وظيفة الرموز الثلاثة "الألف، والواو، الياء"ـ في الخط العربي ـ إلى أنّ عدهم اللغويين العرب، في حالة دلالتهم علىالحركات الطويلة، في مثل "هابوني"ـ مثلاـ أصواتا صامتة، فهم ينظرون إلى الألف والواو والياء في هذا المثال نظرتهم إلى الأصوات الصامتة تماما، في حين أنّها هنا علامات للحركات الطويلة))[9].

الخاتمة

بعد إكمال البحث بحسن الله وتوفيقه توصلت إلى عدد من النتائج التي يمكن إيجاز أهمها فيما يأتي:

1ــ عدم وحدة المصطلح، فقد استخدم ابن جني مصطلحات مرادفة لمصطلح "القوة".

2ــ تنوع المعايير التي اعتمد عليها في الحكم على قوة الصوت، وقد أدى هذا عدم إمكانية وضع مفهوم محدد وواضح لمصطلح "قوة الصوت"؛ لأنَّ شرط الحد أن يكون جامعا مانعا.

(1) علم الأصوات: 202، ويُنظر: الأصوات اللغوية: 33_34، والمدخل إلى علم اللغة: 92_93، وفي الأصوات اللغوية ـ دراسة في أصوات المد العربية: 42.
(2) يُنظر: الأصوات اللغوية: 44، وعلم الأصوات: 368، وفي الأصوات اللغويةـ دراسة في أصوات المد العربية: 42.
(3) سر صناعة الإعراب:1/ 20.
(4) علم الأصوات: 371.
(5) كتاب سيبويه: 4/ 193.
(6) يُنظر: دراسة الصوت اللغوي: 330، وعلم الأصوات: 373، وفي الأصوات اللغوية ـ دراسة في أصوات المد العربية: 43.
(7) المنهج الصوتي للبنية العربية: 35، ويُنظر: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني: 330.
(8) فصول في فقه العربية: 398، ويُنظر: في الأصوات اللغوية ـ دراسة في أصوات المد العربية: 109.
(9) فصول في فقه العربية: 408، ويُنظر: في الأصوات اللغوية ـ دراسة في أصوات المد العربية: 109.

3ــ له بعض الآراء تتوافق مع ما وصل إليه علم اللغة الحديث، نحو:

أ ــ الضمة أثقل الحركات.

ب ــ حروف المد هي حركات مشبعة.

ت ــ الصوامت المهموسة الانفجارية تحتاج إلى جهد عضلي أكثر من الصوامت المجهورة الانفجارية.

4ــ إدراكه لحقيقة حروف المد لم يؤت أثره؛ فقد عاملها معاملة الحروف "الصوامت"؛ بسبب الرسم الكتابي.

5ــ المراد من "الجرس" عنده هو مقدار الضغط على المخرج، ويقابله عند المحدثين " حبس الهواء ".

6ــ ثقل الصوت عنده مرادف لقوته؛ ويقصد به الجهد العضلي المبذول في نطق الحرف.

7 ــ ذكر بعض الصفات التي تتصف بها الصوائت، وهذه الصفات عند المحدثين هي دليل على قوة إسماعها.

روافـــد البحث

ـ أولًا: الكتب المطبوعـــة :

- **أسرار العربية**، لأبي البركات عبد الرحمن بن أبي سعيد الأنباريّ(577هـ)، بتحقيق الدكتور محمّد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية. بيروت، ط1، 1418هـ ـ 1997م.
- **الأشباه والنظائر في النحو**، لجلال الدين السيوطي، بتحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة. بيروت، ط1، 1406هـ ـ 1985م.
- **الأصوات اللغوية**، للدكتور إبراهيم أنيس، مطبعة نهضة مصر، د.ط، د.ت.
- **الأصول في النحو**، لأبي بكر محمد بن سهل بن السراج البغدادي (ت316هـ)، بتحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة. بيروت، لبنان، ط 3، 1417هـ ـ 1996م.
- **التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل**، لأبي حيّان الأندلسي، بتحقيق الدكتور حسن هنداوي، دار القلم ـ دمشق، ج4،1، د.ط، ج2: ط1، 1998م، ج3: ط1، 2000م، ج5، 6: ط1، 2002م.
- **التصريف الملوكي**، لأبي الفتح عثمان بن جني، بتحقيق الدكتور محمد سعيد بن مصطفى النعمان الحموي، مطبعة شركة التمدن الصناعية ـ مصر، ط1، د.
- **التمهيد في علم التجويد**، لشمس الدين ابي الخير محمد بن الجزري(ت833هـ)، بتحقيق الدكتور غانم قدوري الحمد، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ ـ 2001م.
- **جهد المقل**، لمحمد بن أبي بكر المرعشي الملقب بساجقلي زاده(ت1150هـ)، بتحقيق الدكتور غانم قدوري الحمد، ط2، 1429هـ ـ 2008م.
- **الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات**، لعبد البديع النيرباني، ط1، 1427هـ ـ 2006م.
- **الحجة للقراء السبعة**، لأبي علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي(ت377هـ). بتحقيق بدر الدين قهوجي وبشير حويجاتي، دار المأمون للتراث ـ دمشق، بيروت، ط1، 1404هـ ـ 1984م.
- **الخصائص**، لأبي الفتح عثمان بن جني، بتحقيق الدكتور محمد علي النجار(1966م)، دار الكتب المصرية، المكتبة العلمية، د. ط، د. ت.
- **الدراسات الصوتية عند علماء التجويد**، للدكتور غانم قدوري الحمد، ط2، 1428هـ ـ 2007م.
- **دراسات في علم اللغة**، للدكتور كمال محمد بشر، ط9، 1986م.
- **الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني**، للدكتور حسام سعيد النعيمي، دار الطليعة ـ بيروت، 1980 م د.ط
- **دراسة الصوت اللغوي**، للدكتور أحمد مختار عمر، 1418هـ ـ 1997م د.ط.

- **الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة**، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي(ت437هـ)، بتحقيق الكتور أحمد حسن فرحان، جمعية عمال المطابع التعاونية ـ الأردن، ط2، 1417هـ ـ 1996م.
- **شرح التسهيل**، لجمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الأندلسي(ت672هـ)، بتحقيق الدكتور عبد الرحمن السيد والدكتور محمد بدوي المختون، دار هجر، الجيزة، ط1، 1410هـ ـ 1990م.
- **شرح الرضي على الكافية**، لمحمد بن الحسن الرضي الاسترآبادي (ت686هـ)، بتصحيح يوسف حسن عمر، جامعة قار يونس، بنغازي ـ ليبيا، ط2، 1996م.
- **شرح شافية ابن الحاجب**، للرضي الاستراباذي، بتحقيق محمد نور الحسن، وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، 1402هـ ـ 1982م، د.ط.
- **شرح المفصل**، لموفق الدين أبي البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلي النحوي(ت643هـ)، بتحقيق: اميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط1، 1422هـ ـ 2001م.
- **شرح المقدمة الجزولية الكبير**، لأبي علي عمر بن محمد الشلوبين(ت562هـ)، بتحقيق، تركي بن سهوبن نزال العتيبي، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ط1، 1413هـ ـ 1993م.
- **الصيغ الثلاثية مجردة ومزيدة اشتقاقا ودلالة**، للدكتور ناصر حسين علي، المطبعة التعاونية ـ دمشق، 1409هـ ـ 1989 م، د.ط.
- **علم الأصوات**، للدكتور كمال محمد بشر، دار غريب ـ القاهرة، 2000 م، د.ط.
- **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي**، للدكتور محمود السعران، دار النهضة العربية ـ بيروت، د.ط، د.ت.
- **العين**، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت175هـ)، بتحقيق الدكتور مهدي المخزومي(1993م)، والدكتور إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال ـ بيروت، د.ط، د.ت.
- **فصول في فقه العربية**، للدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط6، 1420هـ ـ 1999م.
- **في الأصوات اللغوية، ـ دراسة في أصوات المد العربية**، للدكتور غالب فاضل المطلبي، دار الحرية ـ بغداد، د. ط، د. ت.
- **في اللهجات العربية**، للدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو ـ القاهرة، 2003م، د.ط.
- **كتاب سيبويه**، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(ت180هـ)، بشرح وتحقيق الدكتور عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ط3، 1408هـ ـ 1988م.
- **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها**، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي(ت437هـ)، بحقيق الدكتور محيي الدين رمضان، 1394هـ ـ 1974م، د.ط.
- **لطائف الإشارات لفنون القراءات**، لشهاب الدين القسطلاني(ت923هـ)، بتحقيق الدكتور عامر السيد عثمان، والدكتور عبد الصبور شاهين، مطابع الاهرام التجارية ـ مصر، 1392هـ ـ 1972م.
- **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**، لأبي الفتح عثمان بن جني، بتحقيق الدكتور علي النجدي ناصف وآخرين، مطابع الأهرام، قليوب ـ مصر،1415هـ ـ 1994م، د.ط.
- **المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي**، للدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1417هـ ـ 1997م.
- **المسائل العسكريات في النحو العربي**، لأبي على الفارسي، بتحقيق ودراسة الدكتور علي جابر المنصوري، دار الثقافة، والدار العلمية الدولية ـ عمان، 2002م، د.ط.
- **المسائل المشكلة المعروفة بـ"البغداديات"**، لأبي على الفارسي، دراسة وتحقيق الدكتور صلاح الدين عبد الله السينكاوي، مطبعة العاني ـ بغداد، د.ط، د.ت.

- **المسائل المنثورة**، لأبي علي الفارسي، بتحقيق الدكتور شريف عبد الكريم النجار، ط1، 1424هـ ـ 2004م.
- **معاني القرآن**، لأبي زكريًا يحيى بن زياد الفرَّاء (ت207هـ)، ج1، بتحقيق الدكتور أحمد يوسف نجاتي، والدكتور مُحمَّد علي النَّجَّار، وج2، بتحقيق الدكتور مُحمَّد علي النَّجَّار، وج3، بتحقيق الدكتور عبد الفتَّاح إسماعيل شلبي، دار السرور، د.ط، د.ت.
- **مفهوم القوة والضعف في أصوات العربية**، لمحمد يحيى سالم الجبوري، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط1، 1427هـ ـ 2006م.
- **المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية**، لملا علي بن سلطان القاري(ت1014هـ)،مطبعة البابي الحلبي وأولاده ـ مصر، الطبعة الأخيرة، 1367هـ ـ 1948م.
- **المنهج الصوتي للبنية العربية**، للدكتورعبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان، 1400هـ ـ 1980 م، د.ط.
- **نتائج الفكر في النحو**، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي(ت581هـ)، بتحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي أحمد معوض، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط1، 1412هـ ـ 1992م.

ثانيًا: البحوث المنشورة.

- **قوة الصوت عند القدماء في ضوء علم اللغة الحديث**، للباحث الدكتور صباح عطيوي عبود، جامعة بابل، كلية التربية، قسم اللغة العربية، 2011م.